٣ ـ صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان فى هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير فى عمل وأدائه ، بل كان عند رئيس الشُّرطة فى جنايةٍ وعقابها . فظهر منقلبَ السحنة انقلاباً دميماً ، شوَّه تشويهَه وزاد فيه زيادات . . . . ورأيتهُ مطوط الوجه مطًّا شنيعاً ، بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين فى وجهه ، بل معلَّقتان على جبهته . . .

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هـذا بابٌ على حِدَةٍ فى الامتحان والبلوى ، ومافيه إلا المئونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعملُ فى هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين : على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير . » وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان المعروف عن الجزء الذى لا يتجزأ ماهو ؟ فقال : الجزء الذى لا يتجزأ علىُّ بنُ أبى طالب عليه السلام . . . فقال له أبو العيناء محمد : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى . حمزة جزء لا يتجزأ . . . قال : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ . . . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين . . . قال : فأى شىء تقول فى معاوية ؟ قال : لا يتجزأ

فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أى شىء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون ابو لقمان كان اذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ ، هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه البابُ الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ ، (١)

قلت : ورجع بنا القول الى رئيس التحرير . . .

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذى لا يتجزأ اليوم هو فلان : وان فلانا الآخر يتجزأ مرتين . . . وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة فى هذا النهار هو شأن كذا فى عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصوَّر فى صيغة تلائم جوعَ الشعب فتجعله كالخبز الذى يطعمه كل الناس وتثير له شهوة فى النفوس كشهوة الأكل ، وطبيعةً كطبيعة الهضم . . . وقد رمى إلىَّ رئيس التحرير بجملة الخبر ؛ وعلىَّ أنا بعد ذلك أن أضرم النـار وأن أجعل التراب دقيقاً أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل ويسوغ فى الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى فى العروق

وإذا أنا كتبت فى هذا احتُجتُ من الترقيع والتمويه ، ومن التـدليس والتغليط ، ومن الخبِّ والمكر ، ومن الكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديقُ والدهرىُّ والمعطِّل فى إقامة البرهانات على صحة مذهب عرف الناس جميعا أنه فاسدٌ بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة أنه فاسد . وأين ترى إلا فى تلك النِّحَل وفى هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكِر ، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئ ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقديرٌ من تقدير ، وعملٌ من عمل ، ومذهبٌ من مذهب ؛ والآفة أنهم لا يستعملون فى الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكَّدة ؛ يأخذونها إذا وُجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويلقَى اليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يَرُد على من أعطاه

قلت : ولكن ما هو الخبر الذى أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبت فيه لهذه الصحيفة نفسها ، أنقضه وأسفهه وأرد عليه وكان يومئذ جزءا يتجزأ . . . فان صنعتُ اليوم بلاغتى فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى ، ولا حائلا بينى وبين ذاتِ نفسى ـ فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ . آه لو وضع الرديو فى غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس . . .

قلت : يا أبا عثمان . هذا كقولك : لو وضع الرديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات

قال : ليس هذا من هذا فان للجيش معنى غير الحذق فى تدبير

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

المعاش والتكسب وجمع المال ؛ وفى أسراره أسرارُ قوة الأمة وعمل قوتها ؛ وللحكومة دخائل سياسية لايحركها أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض ، ولا تصرفها العشرة أكثر من الخمسة ؛ وفى أسرارها أسرارُ وجود الأمة ونظام وجودها

قال أبو عثمان : وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارىء المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز ، ثم هى لا تريد أن تذهب أموالها فى إيجاده وتنشئته . وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن فى تحريكها وتيسير مجراها ، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة ... ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركا مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة ، ولا خرجت عن النسق الطبيعى الذى وضعت له ، فان الشعب تحكمه الحكومة ، وإن الحكومة تحكمها الصحافة ، فهى من ثم لسان الشعب ؛ وانما يقرأها القارىء ليرى كلمته مكتوبة . وشعور الفرد أن له حقاً فى رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع هو الذى يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم

قال أبو عثمان : فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً ، وحيث يكون كل قارىء للصحيفة كأنه محرر فيها ، فهو مشارك فى الرأى لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأى ، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هى من مادته ، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت ، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر ، فيُلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية ، وتأتى اليه فى مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين فى داره .

وفي قلة القراء عندنا آفتان : أما واحدة فهى القلة التى لاتغنى شيئاً ، وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم ، وزراية أناس بآخرين ، وتعلق نفاق بنفاق ، وتصديق كذب لكذب . وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين : وهى أن أكثرهم لا يكونون فى قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلهون به ، أو كالفراغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت ، فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها ، ويتعاطون الجد تعاطى من يلهو به ، ويتلقون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة ، والمباحثة بفكرة الاهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير . وهم كالمصلين فى المسجد ؛ فمثل لنفسك نوعا من المصلين اذا اصطفوا وراء الامام تركوه يصلى عن نفسه وعنهم وانصرفوا . . .

قال أبو عثمان : بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لاثبات له إلا فى الموضع الذى تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه ؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشاوات وبيكوات . . . وكان من الطبيعى أن محل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا فى موضع قلب الحى من الحى .

ثم استضحك شيخنا وقال : لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب ، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها ، فاذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا : أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال) .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

فلم يلبث إلا يسيرا ثم عاد متهللا ضاحكا وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعى ، وجلس إلى وهو يقول :

بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال ، ولم ير فيه استطراداً ولا ابتكارا ولا نكتة ولا حجة صادقة ، بل قال كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد ، فاذا نحن زهدنا فى الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الانسانى وتركت من لم ينلها من ذوى الجاه والغنى ، يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة . . . وقلنا انها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر ، أو وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها فى عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان

الوسام كالرقعة من جلد الدولة ، يرقع بها الصدر الذى شقوه وانتزعوا ضميره ، اذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب الذى يحكم لنا . ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذى يحكمون علينا ، فكنا كمن يتقدم فى التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف .

يا أبا عثمان انما هى حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ، ثم الحقيقة . . . فالفكرة الأولى للصحيفة والفكرة الثانية هى للصحيفة أيضاً . ومتى جاء الشعب الذى يقول : لا . بل هى الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة — فيومئذ لا يقال فى الصحافة ما قيل لليهود فى كتاب موسى : تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا . .

قلت : أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير فى هذه المرة ، فشق عليك ألا تثلبه ، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة .

قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو ، وفى مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة) . إن الرجل اشتبه فى كلمة : ما وجهها أمرفوعة هى أم منصوبة ؟ وفى لفظة : ماهى : أعربية أم مولدة ؟ وفى تعبير أعجمي : ما الذى يؤديه من العربية الصحيحة ؟ وفى جملة : أهى فى نسقها أفصح أم يبدلها ؟

إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا اذا نطق . . .

ولقد ابتليت هذه الأمة فى عهدها الأخير بحب السهولة مما أثر فيها الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها واستهدافه دونها للخطر ، فشبه العامية فى لغة الصحف وفى أخبارها وفى طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة ، وكأنه تثبيت للضعف والخور ، وأنت خبير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلا ، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية فى كتابة أكثر المجلات وفى رسائل طلبة المدارس ، حتى لتبدو المقالة فى ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره ، فقرض عنقودا من العنب ، فألقاه فى الأرض وأتربه وتمرغ فيه ، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة فى عشرين إبرة من شوكه .

* * *

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً ، ثم دفعها إلى وقال : اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة . فقرأت هذه العناوين :

« مسئولية طبيب عن فتاة عذراء » ، « مودة الراقصات الصينيات » ، « تخر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها » « هل يعتبر قبول الهدية دليلا على الحب ، واذا كانت ملابس داخلية . . . فهل تعتبر وعدا بالزواج ؟ » ، « هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته . . . بتعويض اذا كانت ابنته غير شرعية » ، « بين خطيبتين لشاب واحد » ، « بعد أن قص على زوجته أخبار السهرة . . . لماذا أطلقت عليه الرصاص ؟ » ، « عروس تأخذ (شبكة) من شابين ثم تطردهما » ، « زوجة الموظف أين ذهبت » « لماذا خطفت العروس فى اليوم المحدد للزفاف ؟ » ، « فى الطريق — حب بالإكراه » ، « فلانون وفلانات ، زواج وطلاق ، وأخبار المراقص ، وحوادث أماكن الدعارة الخ الخ .

فقال أبو عثمان : هذه هى حرية النشر ؛ ولئن كان هذا طبيعيا فى قانون الصحافة إنه لأثم كبير فى قانون التربية ؛ فان الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا . « وباب آخر من هذا الشكل فبكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو ما يصنع الخبر ولا سيما اذا صادف من السامع قلة تجربة ، فان قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ — دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا ، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى إزالته

ومتى ألقى إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات فى وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و . . . »[1]

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير . . .

(لها تتمة) (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

الحكم فى قضية (الثلب المسكين) تلقينا اربعين حكما فى هذه القضية وستجتمع اللجنة لاختيار ما تتحقق فيه شرطنا وهو « احسان الكتابة » ثم تعلن حكمها

الرافعى